أحمد عصام

قليل من الموت

نور عالي مُتَوَهِّج في عيني لا أستطيع الرؤية، هكذا يكون نور كَشَّاف فوق عينك تمامًا، أشعرُ بهذيان ،لا أستطيعُ التحرك ،أشعرُ بألم شديد جدًّا في صدري.

أسمع أُناسًا تسيرُ مِنْ حَوْلِي ؛ولَكِنَّنِي لا أتحكمُ في أي منطقةٍ مِنْ جَسَدِي حتَّى لا أستطيع التَّحَدُّثَ، عيني تغلق ببطءٍ شديدٍ؛ وتفتح مَرَّة أخرى ،ولكن أقل مِن المَرَّات السابقة في الاتساع .

أسمعُ أُمِّي وأَبِي وأصدقائي مِنْ بعيدٍ بصوت غير واضح؛ وأنا لا أعرفُ ماذا يحدث؟!؛ أغلقتُ عيني، ولا أري شيئًا إلا الظلام ،والأصوات أسمعُها فقط!!

أخذتُ أحاولُ أنْ أفتحَ عيني ؛فتحتُها؛ ولَكِنْ وجدتُ نَفْسِي في مكان واسع مظلم؛ وأرى نُورًا على بُعْدٍ قَرِيبٍ؛ ذهبتُ أهرولُ اتجاه النُّورِ ،لا يعنيني سِوَى أن أَصِلَ إليه ؛لا أعرفُ ما سبب هذا الشُّعُور؟!؛ ولَكِنَّنِي أعتقدُ أنَّهُ الطريق الصحيح ،وصلتُ إلي مصدر النُّورِ؛ وجدتُ مصباحًا مُعَلَّقًا في الهواء؛ لَمْ أَرَ فيه

أي شيء؛ كان المصـباحُ مُعَلَّقًا ؛ولَكِن الغريبَ عندما وقفتُ تحت المصـباح تمامًا؛ كانت الإضـاءةُ غريبةً؛ حَيْثُ كان ينيرُ مِنْ حَوْلِي ،وفي موضـعي كان المكانُ مظلمًا؛ أخذتُ أدقِّقُ في المكان؛ وأين مُعَلَّقُ ذلك المصـــباح ،وبعد فترةٍ مِن التفكيرِ أدركتُ أنَّنِي نسـيتُ أمري؛ وأين أنا؟!؛ وما هذا المكان؟!؛ تبًا لهذا المصـباح؛ ظننتُ أنَّهُ طريق الخروج؛ كُلُّ هذا يدورُ في عقلي، يقطعُ تفكيري صَـوْتَ تصـفيق من المكان المظلم مِنْ حَوْلِي؛ ألتفتُ ناحية الصوت قائلًا

- " في حَدْ هنا؟؟"

لَمْ يُجِبْ أحد ؛ولَكِنْ لحظتُ أنَّ إضـاءة المصـباح بدأتْ في الزيادة؛ حتَّى ظهر أحد الاشـــخاص يعطيني ظهره ،ويرتدي وِشَاحًا طَوِيلًا جدًّا؛ شعرتُ برجفةٍ بسيطةٍ في جَسَدِي ؛وبدأتُ بالكلام قائلًا

-" مَنْ أَنْتَ؟"

بعد فترةٍ مِن اللا حركة يلتفتُ الشخص ببطءٍ شديدٍ اتجاهي؛ أقســمُ أنَّنِي لم أخفْ في حياتي مثلما خفتُ هذه اللحظة ؛اســتيقظتُ فزعًا في مكان أنا أعرفُهُ مِنْ هيئتِهِ: إنَّها المستشـفى وأنا على السرير؛شـعرتُ بإرهاقٍ شـديدٍ ؛أخذتُ

فترة نائم لا أتحركُ؛ بدأتُ في النهوض ؛لاحظتُ في المرآة التي أمامي في الغرفة بقعة دم كبيرة على ملابس المستشفى ،عند صدري مِنْ ناحية اليسار بالتحديد؛ بدأتُ في التحرك ؛لكي أرى مصدر الدماء؛ ولَكِنْ لاحظتُ أحدَهم يقفُ علي باب الغرفة؛ وينظر اتجاهي مِنْ خلف الزجاج قليل النفاذية بصَمْتٍ ،كان هدوء المستشفى غريبًا؛ أخذنا في النظر لفترة ،في لحظةٍ ما قام هذا الشخص بالجري بعيدًا عن الباب ؛قد ارتبكتُ؛ حاولتُ النهوض بسرعة؛ ولَكِنَّ جسمي أشبه وكأنَّمَا هناك مادة (ليدوكين) في عروقي أنَّها مادة" البنج "؛تحاملتُ على نفسي- في النهوض ؛وبدأتُ بالحركة المهزوزة متجه نحو الباب ؛وأنا أرى كُلَّ شيء شبه ثابت؛ كُلُّ الأشياء مهزوزة؛ أريدُ أن أستفيق مِنْ تلك الحالة؛ لَكِنَّنِي لا أستطيعُ !!

الموضوع أشبه بأحدهم أخذ صدمات على دماغه في حادث ؛ ولا يستطيعُ الاتزان، فتحتُ البابَ؛ رأيتُ مَمَرًّا طَوِيلًا يهتزُ أمامي مَلِيء بالأبواب ؛وقد دخل هذا الشخص الباب الأول ؛ تحركتُ وراءه إلى الباب الأول ببطءٍ؛ كان المكان غريبًا جدًّا ،كأنَّمَا أعرفُ هذا المكان جيدًّا؛ نَعَمْ إنها غرفتي ؛ما الذي جاء بها في المستشفى؟!؛ لا أفهمُ ماذا يحدث؟!

أخذتْ عيني تجولُ في المكان ؛ لَكِنَّ حدث شيء غريب جدًّا ؛ وجدتُ نفسي- أقفُ أمامي في الغرفةِ؛ ودخلتُ أتحركُ داخل الغرفة؛ وجلستُ على سريري؛ كُلُّ هذا يحدث أمامي، وأنا أمام نفسي-؛ ولم يلاحظْ حتَّى هذا الشخص الذي يشبهني، أو رُبَّمَا هذا أنا بالفعل، وأنا أتواجدُ في الغرفةِ على هيئة روح ؛ ولَكِنْ كيف تكون الرُّوحُ في الخارج وهوعلى قيد الحياه؟!؛ رُبَّمَا أنا أحلمُ؟!

في تلك اللحظة رَنَّ الهاتف المحمول؛ وعندما رأى اسم المُتَّصِل ؛ألقى الهاتف ثُمَّ استعاده مَرَّة أخرى ؛وأخذ يتنفسُ؛ أتذكرُ شيئًا شبه هذا حدث مَعِي مِنْ قَبْلِ يوم؛ تَحَدَّثَ مُحَاولًا أَنْ يصلَ إلى الهدوء التام مستخدم تكنيك الشهيق و الزفير؛ وبدأ في التَّحَدُّثِ قائلًا:

-"أنا تعبتْ ؛واتخنقتْ؛ وحياتي بدأتْ تبوظ ؛كفاية كده؛ أنا تعبتْ نفسيًا !!" ثُمَّ سكت و؛هدأءالمكان؛ لقد تذكرتُ هذا اليوم ؛إنَّهُ يوم أخذ قرار في حياته ؛لَمْ أَكُنْ قادرًا على استيعاب كَمِ التَّشَتُّت الذي أنا فيه ؟!؛لماذا هذا، وليس ذاك؟!؛ لَمْ أَكُنْ أفهمُ وقتَها ما يحدث؛ كُلُّ هذا أتذكرُهُ ؛كان يدورُ في رأسي بعد الانتهاء مِن المكالمة ؛ وكأنَّمَا كان شريط فيديو يُعْرَض أمَامِي ؛تساءلتُ في نفسي:

-" أهذا حُلْمٌ؟؛ أنا تَائِهٌ وحَائِرٌ جِدًّا؟!"

نظرتُ إلى الباب الذي دخلتُ منه؛ وجدتُ الشَّـخْصَ الذي كنتُ ألاحقه وقف في الخارج ؛وينظرُ اتجاهي ،وكان الزجاج كما كان في غرفة المستشفى التي كنتُ فيها غير شفاف ؛ولَمْ أَرَ ملامحه جيدًّا ؛ولا أعلمُ كيف خرج؟!؛ ولَمْ ألاحظْهُ؟!؛ واتجهتُ إلى الباب؛ وبدأ بالجري ؛ فتحت البابَ وهذه المَرَّة دخل بابًا آخر ؛قمتُ بالجري إلى هذا الباب ؛وأمسـكتُ المِقْوَدَ ؛وأخذتُ نَفَسًا عَمِيقًا؛ وفتحتُ البابَ؛ وجدتُ الظلامَ يقابلني؛ كنتُ متردِّدًا في الدخول؛ كنتُ أرى داخل المكان ضَـوْءً بسـيط يشـبه إضـاءة مصـباح عندي في الغرفة؛ إنَّهَا غرفتي مُجَدَّدًا!!

دخلتُ الغرفةَ ؛تذكرتُ هذا اليوم؛ كنتُ قد أغلقتُ على نفسي؛ وأطفئتُ الأنوار ماعدا مصباح صغير إضائته خافتة؛ هذا اليوم سُـقُوطِي الأوَّل؛ لقد خيبت كل آمالي مع أول الشـخصـيات التي وثقت فيها في حياتي ؛وفشـلي في تحقيق بعض أحلامي ؛في نفس الوقت كانت بمثابة خيبة أمل كبيرة ؛أتذكرُ أنَّنِي كنتُ مكتئبًا لا أخرجُ مِنْ غرفتي؛ وجاء شريطٌ مِنْ الذكرياتِ في عقلي ،ذكريات داخل ذكريات ؛تذكرتُ تلك الأيَّام السوداء ؛هي عبارة عن عُزْلَةٍ عَن العَالَمِ ؛ بعدما تذكرتُ

الأحداثَ شـــعرتُ بضـــيقٍ ؛أنا لا أفهمُ ماذا يحدثُ في تلك الدَّوَامَةِ التي وقعتُ فيها!!

عقلي المنطقي لا يستطيعُ تفسيرَ ما يحدث ؛جاء في تفكيري الشَّـــخْصُ الذي أطاردُهُ عنه، وكأنَّمَا يســـمعُ أفكاري؛ وجدتُ بعض الدَّقَاتِ الخفيفةِ علي الباب الذي دخلتُ منه ؛ وكما توقعتُ كان في الخارج ؛وقد بدأ الجري مِنْ جَدِيدٍ ؛أظنُنِي عرفت البابَ الذي عليه الدَّوْر؛ إنَّهَا الذكرى التالية ؛خرجتُ أبحثُ عنه، وعن الباب الجديد ؛خرجتُ مِنْ باب الغرفة؛ وقد تغيرت الأمورُ كُلُّها ؛الظلامُ مِنْ جَدِيدٍ ؛وأســـمعُ صـــوت الأجهزة ،والأطباء، والممرضات ؛وأشـعرُ بألمٍ شـديدٍ في قلبي ؛أسمعُ صَوْتَ بكاء أُمِّي مِنْ بعيدٍ جِدًّا؛ ولا أري غير الظلام؟!

أسمعُ صوت نَبَضَاتِ الجهاز الذي نسمعه دائمًا في الأفلام، ومع كُلِّ نبضةٍ كان يدور سؤالٌ جديدٌ في دماغي:

-"هل أنا أموتُ؟!؛ هل هذه النهاية؟!؛ ولو كانت النهايةَ هل هذه الجحيم أَمْ أنَّهَا تَأَهُّبٌ للنُّورِ؟!؛ هل سـأتركُ أُمِّي وأَبِي؟!؛ هل ما قَدَّمْتُ لحياتي؛ يجعلنِي جاهزًا إلى هذه النهاية؟!"

وبدأت الصَّـــافِرةُ تنوهُ عن جرس الإنذار في عقلي، صـــافرة الجهاز بديل النبض ؛وفي الحال بدأتُ أشعرُ بدغدغة بسيطة

عند صــدري عدة مَرَّاتٍ ؛ولا أعلمُ ما حدث بعدها؛ هدوء تام !!

يدورُ في عقلي سؤالٌ :

-"هو أنا خلاص موت؟!؛ إيه اللي هيحصل؟!".

لا أذكرُ شــيئًا غير أنَّنِي لَمْ أَعُدْ أتحكمُ في شيءٍ مِنْ جَسَــدِي ،حتَّى عقلي ذهب إلى اللا وعي؛ بعد فترةٍ رجعتُ مِنْ ظلمة اللا وعي؛ بدأتُ أسمعُ صوت أحدِهم يقول:

-"الله أكبر"

بجانبي اتجاه اليمين؛ وبدأتُ أســتطيعُ فتح عيني بصــعوبةٍ شديدةٍ؛ وأشعرُ بألمٍ في كُلِّ أجزاء جِسْمِي ؛ تأهبتُ، وكأَنَّمَا هي النهاية؛ وأخذتُ أبكي بداخلي على كُلِّ شيءٍ ســيءٍ قد فعلته ؛ويَمُرُّ شريط الذكريات السيئة في عقلي؛ وبالأخَصِّ آخر فترة، وابتعادي عن أَبِي ،وأُمِّي ،والشِّـجَارُ المُسْـتَمِرُّ الذي لا يتوقف، حُزْنِي على نَفْسِي-، وعلى آخر فترة مِنْ حياتي البائســة التي كانت مقتصرة على الغرفة، وعدم الخروج منها، حُزْنِي على إهـدار عقلي الـذي لطـالمـا كـان مميزًا؛ حتَّى لَمْ أَعُـدْ أهتمُّ بالجامعة، ولا بدراسـتي ،حُزْنِي على خسـارة أصـدقائي ،حُزْنِي على خســارة كُلِّ شيءٍ؛ وقد أَتَمَّ هذا كُلُّهُ حُزْنِي علي حياتي

الدينية ،حُزْنِي على كُلِّ صلاةٍ قد ضاعتْ، على كُلِّ ذَنْبٍ قد فعلته؛ شعرتُ بوجعٍ في قلبي؛ وقد دمعتْ عيني علي وجهي؛ تَوَقَّفَ عقلي عن التفكير لحظة نزول الدَّمْعَةِ الدَّافِئَةِ على وجهي ؛وقلتُ:

-" كيف أكون ميتًا وأبكي؟!؛ حاولتُ جاهدًا فتح عيني؛ وقد كان الأمرُ مثل طلوع جبل شاهق الارتفاع ؛وبدأ الضوءُ يتسللُ إلى عيني؛ وكنتُ أشعرُ بألمٍ شديدٍ مع كل نقطة ضوء تدخل عيني؛ فتحتُ عيني ؛وكنتُ أشعرُ بهذيانٍ وذهولٍ في نفس الوقت، هذيان جَسَدِي الذي لا يَقْوَى على شيءٍ، والذُّهُولُ ...جسدي المُعَلَّقُ بأجهزة وأنابيب كثيرة في المستشفى ؛قد قلتُ في عقلي: -"إنَّهَا الدَّوَامةُ مِنْ جَدِيدٍ؛ لَكِنْ وجدتُ أُمِّي متكئةً نائمةً على الطرف الأخير مِن السرير؛ وأَبِي يُصَلِّي بجانبي؛ وكان في نهاية الصلاة، وانتهى منها؛ وبدأ بالدعاء والبكاء مِنْ أَجْلِي؛ وانتهى مِن الدعاء ؛واستدار؛ لينظر إلَيَّ ؛نظرتُ له ؛وابتسمتُ ابتسامةً بسيطةً بصعوبةٍ شديدةٍ؛ انتفض أَبِي مِنْ على سَجَادَة الصلاة؛ وأيقظ أُمِّي بسرعةٍ قائلًا:

-"اصْحِي يا سعاد ...ابننا فاق!!".

استيقظتْ أُمِّي بسرعةٍ؛ وهي تصرخ باكيةً ومبتسمةً في نفس الوقت وانتفضت حزينةً؛وجاءت اتجاهي مسرعةً؛ ورفعتْنِي مِنْ على السرير إلى حضنِها؛ في البداية كنتُ أشعرُ بألمٍ ؛وهي تأخذُنِي إلى حضنِها الدافئ الحنون؛ لَكِنْ لَمْ أشعرْ في حياتي؛ ولن أشعرَ كما شعرتُ بدفءٍ ،وأمان وحنان أُمِّي؛ قد شعرتُ بأمانٍ وارتياحٍ شديدٍ؛ لا أستطيعُ وصفه حتَّى مَمَاتِي!!

ذهب أَبِي مسرعًا يستدعي الدكتور؛ دخل الدكتور مع أَبِي ؛وقف أمامي ؛ وقال :

-"حمدًا لله على السلامة يا محمد"

ووَجَّهَ الكلام إلي أُمِّي وأَبِي أنْ يتركُونِي ارتاح قليلًا؛ نظرتُ لهم ؛وقلتُ : "هو ايه اللي حصل؟"

نظر الدكتور بابتسامةٍ بسيطةٍ قائلًا

-"ارتاح دلوقتي وبعدين نتكلم"

خرج الدكتور، وأُمِّي ،وأَبِي ثُمَّ مَرَّتْ دَقَائِقُ؛ وذهبتُ إلى النومِ العميقِ. استيقظتُ في اليوم التالي ؛أشعرُ بحالٍ أفضل ؛ كانتِ الممرضةُ في الغرفة تطمئنُ على الأجهزه أنَّهَا تعملُ ؛ثُمَّ قامتْ

بمناداة الدكتور؛ جاء الدكتور وجلس بكُرْسِي جانب السرير؛ وبدأ كلامه:

-"أَنْتَ حالة نادرة "

نظرتُ له بتَعَجُّبٍ قائلًا:

-" حالة نادرة إزاي يا دكتور!!"

رَدَّ الدكتور قائلًا:

-" أَنْتَ عارف أنَّك مُوت؛ وعشتْ تاني!!"

نظرتُ في دهشةٍ

- "مُوت ؛ وعشتْ تاني؛ أكيد بتهزر يا دكتور!!"

قال مبتسمًا:

-"أنا عارف أنَّكَ مِشْ فاهم ؛ بس اللي حصل إن أَنْتَ جالك هبوط حاد في الدورة الدموية ؛أهلك جابوك هنا؛ دخلت غرفة العمليات؛ كنت على الأجهزة ؛بدأنا نحاول نعمل اللازم؛ لَكِنَّ الأجهزةَ بدأتْ تنذرُ أنَّ القلبَ توقَّفَ لثوانٍ؛ بدأنا نحاول نرجع النبض تاني بالأجهزة؛ والحمد لله النبض رجع تاني للقلب ؛ واهو أنت كويس دلوقتي؛ أَنْتَ تِحْمِد رَبِّنا بقيت

عمرك على اللحظه دي؛ ربنا كتبلك عُمْر جديد ؛ولو في غلط تصلحه أَنْتَ مِن الناس القليلة اللي ترجع للدنيا تاني مِنْ عالم المجهول؛ حمدًا لله على السلامة من الرحلة القصيرة دي"

انتهى الـدكتور مِن الحـديـث ؛وعقلي لا يتوقفُ مِنْ ربطِ الأحداثِ بعضـها البعض ؛ومع كُلِّ هذا عقلي لا يسـتطيعُ اسـتيعاب هذا الأمر؛ وهو يربطُ الأحداثَ سـكتُ للحظاتٍ؛ وحاولتُ تدارك الأمرِ ؛وابتسمتُ قائلًا:

-"الحمد لله يا دكتور ربنا كبير أوي ؛الحمد لله!!"

خرج الدكتور مبتسمًا؛ وهو يطمئنِي.

بدأتِ العاصـفةُ في دماغِي؛ أكُلُّ هذه الأحداث كانت بضـع ثواني؟؛ كُلُّ ما حدث كان وَهْمًا، أم جزء مِنْ عالم آخر ؛وما كُلُّ هذه الذكريات؟!

أعتقدُ أنَّ كُلَّ هذا لَمْ يحدثْ مِنْ فراغٍ؛ إنَّمَا دليلٌ على شيءٍ أو رسالةٍ ما؟!

لا أعلمُ، خرجتُ مِن المسـتشـفى؛ ورجعتُ إلى البيت ؛ شعرتُ كَأنَّ لَمْ أَعُدْ للبيتِ مِنْ سِنِينَ!!

بالطبع أنا لَمْ أخرجْ مِنْ حالة الاكتئاب، وغرفتي مُنْذُ وقتٍ طويلٍ؛ ابتسمتُ ابتسامةَ حُزْنٍ على ما فات ؛ وبعد يوم طويل مع أَبِي وأُمِّي ؛ذهبتُ للسرير ؛ ونمتُ نومًا طويلًا، كَأنْ لَمْ أَنُمْ مِنْ سِـــنِينَ؛ وعادتْ حياتي طبيعية مِنْ جَدِيدٍ بعيدةٌعن الاكتئابِ، بعيدةٌ عن العزلة ،بعيدةٌ عن كل ما فات ؛وقريبٌ مِن الله ،قريبٌ مِنْ أُمِّي وأَبِي، قريبٌ مِنْ أصدقائي، قريبٌ مِنْ أحلامي، شيء واحد لَمْ يَعُدْ كما كان هو :أحلامي، أعيشُ حالةَ مَوْتِي كُلَّ يومٍ؛ ولَكِنْ أصـــبحتُ معتادًا على هذا، بالعكس أصـبح حافزًا على قضـاء حياتي في تحقيق أحلامي، ومعرفة قيمة عمري القليل في هذا العَالَم ؟!!